

الندوة السنوية الثامنة عام 1431هـ/2010م

الشيخ بلكبير الفقيه الورع

كـه الشيخ محمد به الكبير حسوني

أحد طلبة الشيخ



المقدمة: وتشتمل على: (التعوذ، البسملة، الحمدلة، الصلاة على النبي، دعاء

الفهم)

أما بعد: معشر الحاضرين والمستمعين أبناء وحفدة الطين والدين وجملة المحبين الصادقين لأستاذ الطلبة الجادين وقدوة الفقهاء المتورعين سيدي الحاج محمد بن محمد عبد الله الشهير ببلكبير عليه رحمة اللطيف الخبير السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم اعلّموا رحماني الله وإياكم أن مقدمة كلمتي مستوحاة مما كان يبدأ به أستاذنا صاحب الذكرى مجالسه الفقهية تبعاً لمن سمع منهم أو عنهم من الفقهاء كالبركراوي والهاللي والبلغيتي وكأن لسان حاله يقول ما قاله بعض الحكماء: اتَّبِعْ وَلَا تَتَّبِدَعْ، أَتَضَعْ وَلَا تَرْتَفِعْ، مَنْ تَوَرَّعَ لَا يَتَّسِعْ وقبل الدخول في الموضوع استسمحكم في توضيح الهدف من تلقيب صاحب الذكرى بالفقيه والأستاذ بدلاً من تلقيبه بالشيخ.

أولاً: أن كلمة الفقيه هي كلمة مدح لا يشاركه فيها إلا من كان فقيهاً بمعنى الكلمة، بخلاف كلمة الشيخ فهي تشتمل ذا المكانة في العلم، وشيخ القراء، وشيخ الشعراء، وشيخ القول، وشيخ القبيلة، وشيخ الزاوية، وشيخ الأزهر، ومن أدركته الشيخوخة، والشيخ النجدي....

ثانيا: أن كلمة أستاذ قد أطلقها الإمام مسلم على أستاذه الإمام البخاري، وهما من هما.

ثالثا: إن غرضي من هذه الكلمة - والله على ما أقول شهيد - طلب الاقتداء بهذه الشخصية الفذة قدر الإمكان، ولم أقصد تزكية أستاذي ووالدي، فإن تزكية الأبناء للأباء كتزكية الشخص لنفسه، وقد قال الله تعالى: ﴿تَرْكُؤُكُمْ أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾⁽¹⁾. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُؤْنَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَلًا﴾⁽²⁾، ولأن صاحب الذكرى كان لا يحب المدح، واستدل على ذلك بـ:

1 - قوله للشاعر الحاج محمد بوكراني صاحب اللواتا: إن كنت تحبني لله فلا تقل في شيئا.

2 - لما قال له مولاي عبد الكريم بن السي حمو: سمعنا رجلا يقول: إن اللحم الذي صلى به خلفك لم تتعد عليه النار، ظهر الغضب في وجهه، وقال: ذلك الولي فلان ابن فلان، أما ابن الكبير فلا ناقة له في ذلك ولا جمل.

3 - ولما قال له بعض الطلبة الذين لازلوا على قيد الحياة: أسألك يا سيدي أن كون معك في الجنة. أجابه بقوله: بشرك الله بالخير، أنا إن دخلت إلى الجنة لا أترك أحداً منكم - أي بالشفاعة - إن أذن لي، لكن اعلم يا ولدي أن دون الجنة أهوالا ومواقف، منها الصراط الذي صفته كذا وكذا... وإمامه في هذا سيدنا رسول الله ﷺ. فقد روى مسلم بسنده عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كُنْتُ أَيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوءِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: سَلْ. فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: وَغَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَلِكَ. قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» وإذا تمهد هذا، أقول: إن تلقيب والدنا بالفقيه لم يتولد عن جهل أو مشاكلة، ولا عن تهكم أو مجاملة، وإنما حلاه به من عايشوه عن كذب، أو استفادوا من تلك المجالس التي كان يباشر التدريس فيها بنفسه، ويجسد أقوالها في أفعاله.

(1) سورة النجم/32.

(2) سورة النساء/49.

- أذكر منهم أهله وجيرانهم بقصر الغمارة بلدية بودة، مكان ميلاده ونشأته، وتعلمه وتعليمه - الذين تواطؤا على تمييزه من بين المواطنين بلقب الفقيه، فقالوا في تسجيل عِدَّتِهِ في زمام فقارة الحجاج (وللفقيه السيد الحاج محمد بن الكبير كذا وكذا ما جل) الخ

- وأذكر منهم أيضا أبي: الكبير بن محمد حسوني رحمته الله الذي كان يلقب أستاذنا بالفقيه بلا قيد، فقد سمعته غير ما مرة يقول عنه: كنا عند الفقيه، قال لنا الفقيه، ودعنا الفقيه،.. الخ ومن حكاياته عنه ما ملخصه: مشينا نحن الثلاثة مع الفقيه من بودة إلى مدرسة تمنطيط - مشى الفقيه إلى شيخه بتلمسان - سبب سفر الفقيه مع شيخ زاوية كرزاز موقف بعض المفتين من زكاة الأوراق النقدية. علماً أن هذه المسألة قد أشار إليها أستاذنا في بعض مجالسه بحضور من لا زال يسكن بهذه المدينة. ويستشهد لها بقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾⁽¹⁾، وبنص المدونة الكبرى: «قال لي مالك في الفلوس: لا خير فيها نظرة بالذهب ولا بالورق، ولو أن الناس أجازوا بينهم الجلود حتى تكون لها سكة وعين لكرهتها أن تباع بالذهب والورق نظرة». وفي تهذيبها لأبي سعيد البراذعي: «ولو جرت الجلود بين الناس مجرى العين المسكوك لكرهت بيعها بذهب أو ورق نظرة» أي أحرّة نسيئة. وإذا ثبت الشهرة بالفقيه فلننتقل إلى الحديث عن صفات الفقيه.

الفقيه: يجيء الفقيه من فقه - بكسر القاف - فقه الأمر، يفقهه: إذا فهمه. فالفقه معناه الفهم مطلقاً، تقول: فلان لا يفقه قولي، أي لا يفهمه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾⁽²⁾، أي لا تفهمون.

(1) سورة التوبة/103.

(2) سورة الإسراء/44.

ويجيء من فقهه - بالضم - فقه الأمر يفقهه أي صار الفقه له سجية. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾⁽¹⁾، أي ليتفهموه فيكونوا علماء به، ويصير ذلك ملكة عندهم. وفي الصحيحين «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» أي يفهمه علم الشريعة.

الفقيه عند الفقهاء هو العالم بالأحكام الشرعية العملية من الحلال والحُرمة، والصحة والفساد، ولا يجب أن يكون مُجتهدًا.

الفقيه عند الأصوليين هو المجتهد، أما المقلد فلا علم له. واستدلوا على ذلك بقول البُخْزَرِيِّ فِي مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الرَّيَّاتِ

عَرَفَ الْعَالِمُونَ فَضْلَكَ بِالْعِلْمِ وَقَالَ الْجُهَّالُ بِالتَّقْلِيدِ
وَأَرَى النَّاسَ مُجْمِعِينَ عَلَى فَضْلِكَ مِنْ بَيْنِ سَيِّدٍ وَمُسُودٍ

قال السيوطي: ومعلوم أن لفظ الفقهاء والعلماء إنما يطلق على المجتهدين، وأما المقلد فلا يسمى فقيهاً ولا عالماً، كما نص عليه أهل الفقه والأصول - انظر الحاوي.

الفقيه عند السلف: قال علي: الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله.

- وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري : إن الفقه ليس بكثرة السَّرد، وسعة الهُدُر، وكثرة الرواية، وإنما الفقه خشية الله تعالى.

- قال مجاهد: الفقيه من يخاف الله.

- وقال الشافعي:

إِنَّ الْفَقِيهَ هُوَ الْفَقِيهُ بِفِعْلِهِ لَيْسَ الْفَقِيهُ بِنَطْقِهِ وَمَقَالِهِ

(1) سورة التوبة/122.

- وقال مَطَرُ الوراق: سألت الحسن عن مسألة، فقال فيها. فقلت: يا أبا سعيد، يَأْبَى عليك الفقهاء. فقال الحسن: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مطر، وهل رأيت بعينك فقيهاً قط؟ وقال: تدري ما الفقيه؟ الفقيه: الُورَعُ الزاهدُ، المقيم على سنة رسول الله ﷺ، الذي لا يسخر بمن أسفل منه، ولا يهزأ بمن فوقه، ولا يأخذ على عِلْمٍ عَلمه الله إياه حطاماً»⁽¹⁾.

- ومن حكمة الأخنَف بن قَيْس شيخ الحسن: رأس الأدب آلة المَنْطِق، ولا خَيْر في قولٍ إِلَّا بِفِعْلٍ، ولا في مالٍ إِلَّا بِجُودٍ، ولا في صَدِيقٍ إِلَّا بِوَفَاءٍ، ولا في فِقْهِه إِلَّا بِوَرَعٍ، ولا في صدقةٍ إِلَّا بِنِيَّةٍ. ولا في حياةٍ إِلَّا بِأَمْنٍ وَصِحَّةٍ.

وإذا كانت هذه النصوص تدل على أن الفقيه الحق هو من تحلى بالورع فما هو الُورَع؟

- عند أهل اللغة الُورَعُ من وَرَعَ يَرُوعُ يَورَعُ ورعاً ورعَ الشخصُ: ابتعد عن الإثم وكف عن الشبهات والمعاصي على سبيل التقوى. جاء في مصنف ابن أبي شيبة، قَالَ عُمَرُ: «رَوَعَ السَّارِقُ وَلَا تُرَاعِهِ» أي إذا رَأَيْتَهُ في مَنَزَلِكَ فَارْكُفْهُ وادْفَعْهُ بما اسْتَطَعْتَ. ولا تُرَاعِهِ: أي لا تَتَنَظَّرَ فيه شيئاً ولا تَتَنَظَّرَ ما يكون منه وكل شيء كَفَفْتَهُ فقد وَرَعْتَهُ. - وفي سنن البيهقي: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: «لَا تَتَنَظَّرُوا إِلَى صَلَاةِ أَحَدٍ وَلَا إِلَى صِيَامِهِ، وَلَكِنْ انظُرُوا إِلَى مَنْ إِذَا حَدَّثَ صَدَقَ، وَإِذَا أَوْثَمَنَ أَدَّى، وَإِذَا أَشْفَى وَرِعَ»، أي إذا أَشْرَفَ على مَعْصِيَةٍ كَفَّ.

وفي التنزيل: قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾⁽²⁾. قال الحسن الحكمة هي الُورع⁽³⁾.

(1) انظر: طبقات الحنابلة لأبي الحسين أبي يعلى، محمد (526هـ) وإبطال الحيل لابن بطة (387هـ) وأخلاق العلماء لأبي بكر الآجري (ت360هـ).

(2) سورة البقرة/269.

(3) نقله القرطبي والثعالبي.

قالوا: وسمي الورع حكمة؛ لأنه يمنع صاحبه من أن يقع في الحرام، أو ما لا يجوز له فعله؛ ذلك أن أصل الحكمة المنع، ومنه حكمة الدابة؛ لأنها تمنعها من مخالفة راجبها. قال جرير:

أَبْنِي حَنِيفَةً أَحْكَمُوا سَفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا

- وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْسُ الْتَقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾⁽¹⁾. قال الحسن: لباس التقوى هو الورع⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾⁽³⁾. قال قتادة: النهى هو الورع. (قاله الثعالبي والطبري).

وفي السنة: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: «كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحَبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحْسَنَ جَوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَأَفْلَ الضَّحِكِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»⁽⁴⁾، ومعنى كن ورعا أي داوم عليه في جميع الحالات حتى يصير طبعاً لك، فتكون أعبد الناس؛ لدوام مراقبتك واشتغالك بأفضل العبادات بظاهرك وباطنك بإيثار حقك على حظك، وهذا كمال العبودية. وروى الديلمي: «مَلَاكُ الدِّينِ الْوَرَعُ».

ولهذا عجب الحسن من الغلام لما قال له: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما آفته؟ قال الطمع. والملاك بالكسر والفتح، والكسر أفصح، وملاك الشيء أصله وصلاحه، وقوامه ونظامه، وَمَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِيهِ. والمراد قوة الدين، واستحكام قواعده التي بها ثبات الورع بالكف عن التوسع في الأمور الدنيوية المشغلة عن ذكر الله ودوام مراقبته⁽⁵⁾..

(1) سورة الأعراف/26.

(2) نقله الزمخشري وابن عطية.

(3) سورة طه/54.

(4) صحيح، أخرجه ابن ماجه.

(5) نقله السيوطي والديلمي والقضاعي وابن أبي الدنيا والمناوي.

وكيفية التحلي بالورع تقتضي اتقاء المحرمات والمكروهات والشبهات، أو اتقاء المحرمات والشبهات عند من يرى دخول المكروهات في الشبهات وعليه فمنه واجب وهو ترك المحرمات ومنه مندوب وهو ترك الشبهات. ومن ثمة قالوا درجة الورع تُبلِّغ إلى الزهد في الدنيا. الذي هو مفتاح الخير ففي ربيع الأبرار قال الفضيل بن عياض جُمعَ الخيرُ كُلُّه في بيت، وجُعِلَ مفتاحُ الزهد في الدنيا. وجُمعَ الشرُّ كُلُّه في بيت، وجُعِلَ مفتاحُ حب الدنيا.

وعنه: لأن أطلب الدنيا بالطلب والمِزمار أحب إلي من أن أطلبها بديني. وفي سير الذهبي: قال يوسف بن الحسين: بِالْأَدَبِ تَفْهَمُ الْعِلْمَ، وَبِالْعِلْمِ يَصِحُّ لَكَ الْعَمَلُ، وَبِالْعَمَلِ تَنَالُ الْحِكْمَةَ، وَبِالْحِكْمَةِ تَفْهَمُ الزُّهْدَ وَتُتَوَقَّعُ لَهُ، وَبِالزُّهْدِ تَتْرُكُ الدُّنْيَا، وَبِتَرْكِ الدُّنْيَا تَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ، وَبِالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ تَنَالُ رِضَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ الْقَشِيرِيُّ: قِيلَ مَنْ صَدَقَ فِي زُهْدِهِ أَتَتْهُ الدُّنْيَا رَاغِمَةً.

وللسائل أن يقول: هل كان من نتحدث عنه متصفاً بما يدل عليه لقبه أم لا؟

الجواب ما يظهر بعد التأمل في المعطيات التالية:

- من وَرَعَ من نتحدث عنه المداومة على تدريس الطلبة، ومراقبتهم، والسهر على راحتهم، وتقديم مصلحتهم على كل مصلحة؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»⁽¹⁾. وأوصى ﷺ بطلبة العلم خيراً، فقال لأبي سعيد: «إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبِعٌ وَإِنَّهُمْ سَيَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ فَإِذَا جَاءُوكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا»⁽²⁾. وقال الشافعي في المسند: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة». أي ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم. لذلك كان استأذنا لا يغادر إقامته إلا خارج أوقات الدراسة والصلاة، وفي مناسبات معدودة. أما مبيته خارج الإقامة فكان محدوداً جداً، وسببه إما لأداء مناسك الحج والعمرة: وعدد رحلاتهما أربع مرات فقط، أو لغرض الاستشفاء: وعدد مراته أقل مما سبق.

(1) متفق عليه.

(2) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

- ومن ورعه المحافظة على أداء الصلوات الخمس مع الجماعة في المسجد ولو باستعمال الكرسي المحرك عند العجز عن المشي والقيام، امثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾⁽²⁾، ولحديث سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي رَزِينٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ قَالَ: جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كَبِيرٌ ضَرِيرٌ، شَاسِعُ الدَّارِ وَلِي قَائِدٌ لَا يَلَاوُمُنِي. فَهَلْ تَجِدُ لِي رُخْصَةً أَنْ أَصَلِّيَ فِي بَيْتِي؟ قَالَ: «أَتَسْمَعُ النَّدَاءَ؟». قَالَ: نَعَمْ قَالَ: مَا أَجِدُ لَكَ رُخْصَةً»⁽³⁾.

- من ورعه التورع عن الفتوى، إذ سألته في جلسة فطور الصباح عن كيفية زكاة ما يجده الموظف برصيده في نهاية السنة، فقال: قال لي شيخي: «التقوى ترك الفتوى». لم أتجرأ على أن أسأله عن اسم شيخه: أهو الأول ببوده؟ أم الثاني بتمنيط؟ أم الثالث بتلمسان؟ قال الشاعر:

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ عَلَيَّ وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

والتباعد عن الفتيا شأن المتقين الورعين من السلف والخلف، ففي الحديث الذي أخرجه الدارمي مرفوعاً ونسب لعمر «أَجْرُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرُكُمْ عَلَى النَّارِ». قال المناوي: في الفيض: «في سنده المشهود له بالترجيح المستحق لأن يسمى بالصحيح».

قال الشعراوي رحمه الله ما نصه: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾⁽⁴⁾، أي: لا تتبع، ولا تتدخل فيما لا علم لك به، كمن يدعي مثلاً العلم بإصلاح التلفزيون وهو لا يعلم، فربما أفسد أكثر مما يصلح.

(1) سورة البقرة/43.

(2) سورة البقرة/238.

(3) أخرجه ابن ماجه البيهقي والطبراني والنسائي وأحمد.

(4) سورة الإسراء، 36.

ومن هنا قال أهل الفقه: مَنْ قال لا أدري فقد أفتى؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى مَنْ يعلم، أما لو أجاب خطأ، فسوف يترتب على إجابته ما لا تُحمد عُقْباه، والذي يسلك هذا المسلك في حياته تكون حركته في الحياة حركة فاشلة. وقال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ ۚ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾⁽¹⁾. وكفى بهذه الآية زاجرة زجراً بليغاً عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام. وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليثق بالله وليصمت، وإلا فهو مفتر على الله. وقال النووي في كتابه آداب الفتوى: اعلم أن الإفتاء عظيم الخطر، كبير الموقع، كثير الفضل؛ لأن المفتي وارث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وقائم بفرض الكفاية، لكنه معرض للخطأ. ولهذا قالوا: المفتي موقع عن الله تعالى. وعن ابن عباس ومحمد بن عجلان: إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله. وعن سفيان بن عيينة وسحنون: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً. وعن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: من أفتى في كل ما يسأل فهو مجنون. وروينا عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى، قال: أدركت عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة، فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول. وفي رواية ما منهم من يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا. انتهى.

وهذا ما فعله أستاذنا أكثر من مرة مع الخصوم الوافدين عليه من بودة، فمع أنهم من أهل بلدته ورضاهم به حكماً بينهم فلم يتدخل في قضاياهم، وأحالهم على تلميذه الحاج عبد القادر بكرراوي بنوم الناس. وعن الشعبي والحسن وأبي حصين - بفتح الحاء - التابعين قالوا: إن أحدكم ليفتي في المسألة ولو وردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر. انتهى. والمظنون بأستاذنا أنه لو كان

(1) سورة يونس/59.

ممن ابتلي بالفتوى لاستشار فيها غيره من أهل العلم، كما فعل في مسألة ثبوت رؤية هلال رمضان وشوال بواسطة المذيع التي سئل عنها، فإنه لم يُفتَ فيها لوحده، وإنما ألقاها على عاتق الموقعين عليها: بالمعهد الديني بدائرة أدرار الساورة، وهم السادة: احمد بن محمد البحامدي، والمختار ابن احمد سالي، والرقاني محمد بن مبارك، والحبيب بن عبد الرحمن الحبيب، وأستاذنا سالم بن محمد البلبالي، ومحمد بن الطالب البلبالي، وعبد القادر بن سالم بن عبد الكريم، والحبيب بن محمد بن حسي، والحاج محمد عبد الكريم بن عبد القادر تينيلان، والطالب محمد سدي بودة، ومحمد السالم بن إبراهيم إمام مسجد الجيلالي بإدرار، وأخيرا صاحب الذكرى الذي كتب بأنامله ما نصه: عبيد ربه محمد بن محمد عبد الله بن الكبير إمام الجامع الكبير أدرار.

- من ورعه: لم يشغل نفسه أو طلبته بتأليف الكتب وبيعها، ولم يكن يدع من أهل الفقه الذين لم يؤلفوا شيئا، فقد سبقه إلى ذلك ابن النحاس النحوي أستاذ التفسير بمصر، وأبو البقاء محمد بن عبد البر الشُبكي، القائل: أعرف عشرين علما لم يسألني أحد عنها بالقاهرة. وعبد القادر الفاسي صاحب الأجوبة التي كان يملئها على تلاميذه، وأبو الحسن الشاذلي الذي كان يحضر مجلسه العز ابن عبد السلام وابن دقيق العيد والحافظ المنذري وابن الحاجب وابن الصلاح وغيرهم. قال ابن عطاء الله في لطائف المنن (ص06): قد بلغني أنه قيل له يا سيدي لم لا تضع الكتب في الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم؟ فقال رضي الله تعالى عنه: «كتبي أصحابي». وأستاذنا كما هو معلوم يتصل بالشاذلي بواسطة الطريقة الكرزازية، مروراً بالزروقية التي هي فرع من الشاذلية.

- من ورعه التيسيرُ على الناس وحملهم على الرخصة إن دعت الضرورة، وحملُ نفسه على العزيمة. فلم يأمرنا ونحن معه على متن الطائرة لا بأداء الصلاة، ولا بالدخول في أحد النسكين، ولا بعدم الأكل من وجبة العشاء المقدمة

لنا، لكنه في خاصة نفسه ما أكل من وجبته إلا تمرتين فقط من تمر دقلة نور، ولم يصل المغرب ولا العشاء إلا بعد نزوله من الطائرة، ولم يُحرم إلا من مطار جدة. - من ورعه تركية نفسه عن الشهوة الخفية التي هي حب الرئاسة، كما قال أبو داؤد السجستاني. وكيف لا يكون ذلك منه وهو الذي كان يردد في مجالسه ما نقله الشاطبي في الاعتصام عن الصوفية: حب الرئاسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين، فكيف إذا انضاف إليه الهوى، يؤكد ذلك عدم طلبه مسؤولية المدارس والمساجد، وتخليه وهو سليم الجسم والعقل عن إمامة المصلين في الجمعة والأعياد.

- من ورعه الزهد في الدنيا، وعدم الالتفات لوسائل كسبها، فلا مداخل باسمه أو اسم أحد عائلته من مقالة أو تجارة أو كراء محل أو سيارة، ولا بيع منتج فلاحية أو صناعة، ومما يؤكد رفع همته وقصرها على الثقة بالله والوثوق بما عند الله عما في يديه ويد الناس: أننا لم نعلم عليه بأنه طلب شفويا ولا كتابيا إمداده بأية مساعدة من أي كان، وأكبر دليل على ذلك أنه لما سأله الصحفي عن الموارد المالية للمدرسة التي كانت تأوي آنذاك ما يزيد عن ألف طالب قال له: دعها لله تعالى، والزهد في الدنيا من وصايا رسول الله ﷺ. ففي الحديث: «أزهد في الدنيا يُحبك الله، وأزهد فيما في أيدي الناس يُحبك الناس». قال النووي عقب هذا الحديث: أخرج ابن ماجة وغيره بأسانيد حسنة. ومعنى «أزهد في الدنيا»: أترك في الدنيا ما لا ينفعك في الآخرة، وأترك ما في أيدي الناس؛ لأن الناس إذا سأل الإنسان ما في أيديهم استثقلوه وكرهوه، وإذا كان بعيدا عن ذلك فإنهم يحبونه -

- وروى البيهقي في شعب الإيمان: بسنده إلى عبد الصمد قال سمعت فضيل بن عياض يقول: سئل ابن المبارك من الناس؟ قال: العلماء، قال: من الملوك؟ قال: الزهاد، قال: فمن السفلة؟ قال: الذي يأكل بدينه. وفيها أيضا أخبرنا أبو عبد

الله الحافظ قال: سمعت أبا عبد الله الزبير بن عبد الواحد يقول: سمعت أبا عبد الله بن الجراح يقول: نا يحيى بن محمد بن أعين قال: سمعت إسماعيل بن أبي أويس يقول: سمعت خالي مالك بن أنس يقول: قال لي ربيعة الرأي وكان أستاذ مالك: يا مالك من السفلة؟ قال: قلت: من أكل بدينه، فقال: من سفلة السفلة؟ قال: من أصلح دنيا غيره بفساد دينه، قال: فصدرني. قال عمر بن عبد العزيز لجلسائه: أخبروني بأحمر الناس؟ قالوا: رجل باع آخرته بدينه، فقال عمر: ألا أنبئكم بأحمر منه؟! قالوا: بلى، قال: رجل باع آخرته بدنيا غيره⁽¹⁾.

وجاء أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام وفي رواية لكعب الأحبار: «مَنْ أَرْبَابُ الْعِلْمِ؟ قَالَ: الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ. قَالَ: فَمَا يَنْفِي الْعِلْمَ مِنْ ضُؤْرِ الرِّجَالِ؟ قَالَ: الطَّمَعُ»⁽²⁾.

قال الغزالي: ومن الحرام المحض ما يؤكل من الأوقاف من غير شرط الواقف، فمن لم يشتغل بالتفقه فما يأخذه من المدارس حرام، ومن ارتكب معصية ترد بها شهادته، فما يأخذه باسم الصوفية من وقف أو غيره فهو حرام⁽³⁾.
- روي الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع الله شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له.

- ونقل الثعالبي عن رقائق ابن المبارك عن القُرظي، قال: إذا أراد الله تبارك وتعالى بعبد خيراً، جعل فيه ثلاث خصال: فقهاً في الدين، وزهادة في الدنيا، وبصيرة بعيوبه.

(1) حلية الأولياء 325/5.

(2) أخرجه الدارمي. قال محققه: حسين سليم أسد: رجاله ثقات وإسناده صحيح.

(3) بداية الهداية.

ومن ورعه الجود الذي قالوا: إنه إفادة ما ينبغي من الخير لغير غرض، وإنه غَايَةُ الرُّهْدِ؛ لأن من أحب شيئاً أمسكه، ولم يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه. فقد شاع عن أستاذنا أن كرمه تعدى إلى غير المسلمين، بدليل قصة - الأروبي - المعروف عند أهل هذه المدينة بـ"ماكس" الذي أقرضه الأستاذ مبلغاً من المال، ولما رجع لرده وهبه له، قائلاً: هذه ضيافتك عندنا. فخرج من عنده شاكراً متعجباً؛ لأن الأستاذ أقرضه وهو على غير دينه، ولم يشترط هوية ولا ضامناً ولا أجلاً؛ لأنه نوى العطية، ولا هدية أو زيادة؛ لأن ذلك ربا - كما قال ابن الموازي في كتاب الإجماع ص55 - ولكون اشتراط الفائدة في القرض تخرجه عن أصله الذي شرع من أجله وهو: صنع المعروف ومواساة ذوي الحاجة ابتغاء وجه الله فقط، شأنه في ذلك شأن الضمان والجاه. قال أبو محمد سيدي عبد الواحد بن عاشر:

الْقَرْضُ وَالضَّمَانُ رَفَقُ الْجَاهِ تُمْنَعُ أَنْ تُرَى لِغَيْرِ اللَّهِ

أيها الأخوة: هذه جوانب من سيرة أستاذنا، وهي صالحة للعبارة والاقتداء، ذلكم الاقتداء الذي يعبر عن صدق المحبة المفيدة للجميع في الدنيا والآخرة. وما ذلك عليكم بعزيز، فقد جاء في الشواهد النحوية قول الشاعر:

بِئْذِلْ وَحِلْمٍ سَادَ فِي قَوْمِهِ الْفَتَى وَكَوْنُكَ إِيَاهُ عَلَيْكَ يَسِيرُ

وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك... الخ وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

حرر ببودة في: يوم السبت 29 ماي 2010 م الموافق 16 جمادى الثانية 1431هـ.

تحرير وإلقاء العبد الضعيف محمد بن الحاج الكبير حسوني ببلدية بودة.